

دور الشعر في حفظ اللغة العربية

د. أمينة عبدالمولى حراحشة

الملخص:

يعد الشعر مصدراً من مصادر اللغة العربية، وفنا من فنونها، افتتن به الإنسان العربي فقرضه وجمعه ورواه ونقده، ووضع المصنفات الأدبية والنقدية فيه، واستمر معه في كل العصور، فهو وعاء أودعه فكره ولغته، وقد تناول البحث " دور الشعر في حفظ اللغة العربية " .

تحاول الباحثة أن تستجلي أهمية الشعر ومكانة الشاعر العربي، وكذلك علاقة الشعر باللغة، ومن ثم دوره في حفظها. وقد اعتمدت الباحثة تقديم الأمثلة الشعرية لكل دور من تلك الأدوار، ودعت إلى تفعيل دور الشعر في خدمة اللغة العربية وتوسيع نطاق الاحتجاج به زمانياً ومكانياً، وتكثيف حضوره في المناهج المدرسية. وقد أفادت من المناهج النقدية كالمناهج الوصفية والاستقرائية، كما اعتمدت الباحثة قائمة من المصادر القديمة والمراجع الحديثة ذات العلاقة بموضوع بحثها.

تمهيد:

الشعر ومكانة الشاعر

تلخص مقولة " الشعر ديوان العرب " ماهية الشعر ومكانته بالنسبة للإنسان العربي في عصور سائفة ولاحقة، فهو بذلك يعدُّ أبرز علومها، وأهم نشاطاتها الفكرية، ومحط اعتزازها بهويتها، فالشعر علمٌ وفكرٌ وفنٌ وهويةٌ، وهو مرآتها التي تجدُّ صورتها فيه، وتعكسُ من خلاله للأمم الأخرى تلك الصورة. وكأن هذه المقولة ترمي إلى أن الشعرَ لم يسجل تاريخ العربية فحسب إنما سجل ماضيها وحاضرها ومستقبلها، دون حدود زمنية، وسجل كذلك ما يتعلق بها فكرياً وسياسياً واجتماعياً ولغوياً.

وإننا هنا لا نريد تعريف الشعر، ولا يشغلنا ذلك، فالتنقاد القدامى والمحدثين سبقوا وأفاضوا التعريف بالشعر، وقدموا العديدَ من المصنفات الأدبية والنقدية أمثال: "قدامة بن جعفر- الشعر والشعراء" وقسموا الشعر إلى طبقات

أمثال: "ابن سلام الجمحي- طبقات فحول الشعراء" وغيرهم الكثير.

لكننا نريد أن نؤكد على أهمية الشعر في حياة الإنسان العربي ودوره في خدمة اللغة العربية، فإذا كان الشعر " هو الوثيقة الرسمية الأولى التي دونت تاريخ العرب الوجداني والاجتماعي واللغوي " (١) فهو عالمها، فلا نجد عصرًا من عصور العربية إلا وقد أفاض الشعر، ولا نجد مكاناً (بادية - حاضرة) إلا وأنتجت الشعر، وكأنه ولد معها وعاشت به.

وقد كان - وما زال - للشعر مكانٌ خاصٌ في المجتمع العربي؛ لأنه ينبئ هذا المجتمع على هويته العربية والإسلامية، وله ألفة في وجدان العربي، يستطيع أن يسهم في تأصيل الهوية العربية وربط الإنسان العربي بقضايا أمته " (٢).

فلولا الشعر لما اغتنت خزانة العلوم العربية بكل ما تحفل به الآن من مواضيع البلاغة والبيان والنحو واللغة والنقد، وهو بذلك يسهم في الإنتاج والتأليف،

ويرفد خزانة العربية بالمصنفات النقدية والأدبية.

والشعرُ من زاويةٍ أخرى يوحدُ المجتمع العربي؛ فقضايا المجتمع العربي وهمومه وآلامه وآماله كلها تتشابه، يعبر عنها الشعرُ بلغةٍ أقرب للنفس، وأريح للسمع، وأدعى للحفظ، وما يحفل به من إيقاعات موسيقية تجعله يناسب ذلك الشعور من همِّ جماعي أو فردي، من نشوة طربٍ لحظي أو سعي نحو السعادة أبدي.

ولا يختلف الفلاسفة المسلمون حول حقيقة أنّ الشعر نافعٌ ولذيذٌ معاً، ويبدو ذلك واضحاً عند الفارابي: " والأقويل الشعرية منها ما يستعمل في الأمور التي هي جدٌّ، ومنها ما شأنها أن تستعمل في أصناف اللعب. وأمورُ الجدِّ التي جميع الأشياء النافعة في الوصول إلى أكمل المقصودات الإنسانية وذلك هو السعادة القصوى " (٣).

ومعنى هذا أن الشعر يحقق نوعين من الاستجابة لدى المتلقي وهما: الشعور

قواعدها وعباراتها، إلى تركيب أعاريزها وتفعيلاتها في بنية القصيد (٩).

إذن فاللغة العربية دون غيرها تتمتع بخاصية الشاعرية وذلك يتمثل في أصوات حروفها وتفاوت مخارجها والعلاقات القائمة بين المعاني والأصوات لتلك الحروف ومن ثم التركيب. لذلك يمكن أن نفسر استمتاع الأجانب بقصائد شعرية لا يدركون معانيها. ولعل هذا ما يفسر اتهام قريش وغيرها لسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - عندما سمعوا القرآن الكريم أنه شاعر، فالقرآن الكريم لغته اللغة العربية، أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم هو كلام الله، ومعنى ذلك أن يكون بناء اللغة فيه بناءً سليماً لا يأتيه الخلل من جانب، وما وجدته قريش - أفصح العرب - من تأثير للقرآن الكريم أو تألف للفظ والمعنى فيه جعلها تصفه بالشعر، حتى كان التحدي أن يأتيوا بمثله أو بسورة أو آية. إن هذا الوهم لدى قريش كان سببه موسيقى الحرف العربي وخصائصه.

إذا كان القرآن الكريم قد حفظ العربية إلى الأزل (إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون) (١٠)، فإن الشعر أسهم بلا نزاع في حفظ اللغة العربية وهو مصدرٌ من مصادرها.

مظاهر حفظ الشعر للغة

العربية :

أولاً: حفظ مفردات العربية

وتراكيبها.

تعدُّ العربية أوفر اللغات عدداً في أصوات المخارج التي لا تلتبس ولا تتكرر بمجرد الضغط عليها، فليس هناك مخرج صوتي واحد ناقص في الحروف العربية،

إضافة إلى عنصر التخيل، وكذلك فالشاعر يتنافس مع غيره من الشعراء في الابتكار والجدّة في شعره، فكلهم على اتفاق في معرفة الوزن والقافية لكنهم يتفاوتون في ابتكار المعاني والصور والأخيلة، ومن هنا يتفاوتون في شاعريتهم.

إن لغة الشعر لغةٌ فيها من الوزن والتقنية والنظام المُحكّم بقواعد، إلى جانب المعنى، واستخدام ذلك المعنى استخداماً خاصاً غير مألوف، يتردد الشاعر عن غيره من عامة الناس باختزان نظام الشعر الموسيقي واختزان المعاني ومن ثم القدرة على ابتكار الصور.

إن علاقة الشعر باللغة علاقة وطيدة، علاقة الجسم بالروح، لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر، فاللغة وعاء الشعر، والشعرُ مستودع غريبها وشاردها وشاهدها ومعناها ومبناها، واستمراريته إلى يومنا هذا يؤكد تلك العلاقة من جانب، ويؤكد أهميته ودوره في حفظها من جانب آخر.

فإذا كانت لغة الشعر لغة خاصة فاللغة العربية هي لغة شاعرة، "وليس في اللغات التي نعرفها أو نعرف أدبها لغة واحدة توصف بأنها لغة شاعرة غير لغة الضاد، أو لغة الأعراب أو اللغة العربية" (٧).

ومعنى اللغة الشاعرة أنها "لغةٌ بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي جملتها من منظوم منسق الأوزان والأصوات، ولا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعر" (٨).

إن هذه الخاصية في اللغة العربية ظاهرة في تركيب حروفها على حدة، إلى تركيب مفرداتها على حدة، إلى تركيب

باللذة، والتأثير في سلوك المتلقي بقصد توجيه أفعاله (٤). وكأنّ الشعر يؤدي إلى اللذة والتأثير معاً، وبذلك يحقق أعلى مراتب الشعرية، ولذلك فجمهور الشعر أكبر من جمهور النثر، فنجد من يتعلق بشاعرٍ دون آخر، أو نصٍ شعري دون آخر، بقدر ما يحقق له من لذةٍ وما يحدث في نفسه من تأثير.

وقد كان أصحاب الشعر من منشئيه، ورواته، ومدوّقيه، يمثلون الطبقة المستنيرة في القبيلة، والشاعرُ على رأس هؤلاء جميعاً، يتبوأ من القبيلة مكاناً رفيعاً ويحسُّ في نفسه وقد أعطي العقل والشاعرية - إنه من أمثالهم وعقلائهم (٥).

وقد كانت القبيلة فيما يروى أنها إذا نبغ فيها شاعرٌ أقامت المأدب، وجاءت إليها وفود القبائل مهنتاً، وضربت النساء بالدفوف، وأقامت الاحتفالات (٦).

ولعلّ هذا الاهتمام يدلُّ على أمرين: الأول أهمية الشعر بالنسبة للقبيلة ومعرفتها بدوره في تسجيل أيامها والدفاع عنها والنيل من أعدائها، والأمر الثاني أهمية الشاعر ومكانته، فهو صاحب ملكة ومعرفة باللغة، تفرّد عن غيره من أبناء القبيلة بالطنطنة والذكاء والحفظ والمعرفة، والمعرفة هنا تنقسم إلى معرفة بتاريخ القبائل وأنسابها وقضاياها، ومعرفة باللغة وعلومها من بلاغةٍ وعروضٍ وصرفٍ ونحو ودلالة.

فالشعر مادة إعلامية للقبيلة والشعر هو الناطق الإعلامي لها.

الشعر واللغة :

ما يميز الشعر عن المنثور ذلك الالتزام بقواعد الشعر من الوزن والقافية

وإنما تعتمد هذه اللغة على تقسيم الحروف حسب موقعها من أجهزة النطق كما تمتاز بحروف لا توجد في اللغات الأخرى كالضاد والطاء والعين والقاف والحاء أو توجد في غيرها أحياناً ولكنها ملتبسة مترددة لا تضبط بعلامة واحدة، فاللغة العربية لغة إنسانية ناطقة تستخدم جهاز النطق الحي أحسن استخدام يهدي إلى الافتتان في الإيقاع الموسيقي(١١).

إن الشعر احتفظ بالمؤثر من كلمات العربية وتراكيبها، واحتفظ بغريبها فكان بمثابة السجل اللغوي الذي أثار الشراح والنقاد لدراسته. ومن أمثلة ما جاء من مفردات حفظها الشعر وتوقف عندها الشراح والرواة وعلماء اللغة ما يأتي:

١. كلمة (العيثوم) يفسرها الأصمعي بأنها الناقة إذا كانت كثيرة اللحم والوبر، وأنشد للأخطل:

وملحّب خضل الثياب كأنما

وطئت عليه بحفها العيثوم(١٢)

٢. كلمة (الربيع) يفسرها الأصمعي بأنها ولد الناقة إذا كان من نتاج الربيع والأم مربع، ويستشهد بقول جرير:

قد أطلبُ الحاجة القصوى فأدرکہا

ولستُ للجارة الدنيا بزوار

إلا بغرٍّ من الشيزي مكللة

يجري عليها سديفُ الربيع الواري(١٣)

٣. كلمة (الدويل) يفسرها الأصمعي أنها من أسماء النبات والشجر، فذكر من أسماء النبات السبط، والنصي يكون في السهل والرمل - فما دام رطباً فهو نصي فإذا يبس فهو حلي، فإذا تحطم وأسود فهو الدويل، ويستشهد بقول الراعي:

شهري ربيع ما تذوق لبونهم

٤. كلمة (الشرح) يفسرها أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري في كتابه "النوادر في اللغة" أنها السرير الذي تحمل عليه الموتى واستشهد بقول عبدة بن الطبيب:

ولقد علمتُ بأن قصري حفرةٌ

غيراً يحملني إليها شرحُ

٥. كلمة (الغياة) يفسرها أبو زيد سعيد الأنصاري أنها الضيافة وهي ظل السحابة عند بعض العرب، وعند البعض الآخر الغياية بالياء. ويستشهد بقول الشاعر (كثير عزة) (١٥):

كساع إلى ظل الغياة بيتني

مقيلاً فما أتاها اضمحلت

٦. كلمة (ثمالة) يفسرها أبو زيد سعيد الأنصاري أنها الرغوة، ويستشهد ببيت أعشى بن عكل:

وان لم تقدّر خمرةً من ثمالتها

فإنك عن ألبانها سوف تسمن(١٦)

٧. كلمة (الغينة) القطة من الشجر الملتف تغطي ما تحتها، يقول الشاعر(١٧):

كأنني بين خافيتي عقابٌ

أصاب حمامةً في يوم غين

لعل الاحتجاج اللغوي بالشعر واحداً

من أبكر صور الدراسات اللغوية فقد روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه تساءل عن معنى قوله تعالى: (أو يأخذهم على تخوف) (١٨) فإذا بشيخ من بني هذيل يقول: هذه لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف التقصص... قال عمر: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال شاعرنا أبو كبير الهذلي:

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً

كما تخوف عود التبععة السفن
فقال عمر: "أيها الناس عليكم بدويانكم - شعر الجاهلية - فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم" (١٩).

إن هذه القصة تؤكد أن الشعر مصدرٌ من مصادر اللغة ووسيلة من وسائل حفظها، ووعاء يتسعها، أما مسألة الاحتجاج بالشعر الجاهلي لم يكن تحديداً مقصوداً لذاته بل عن العصر الجاهلي هو أقرب العصور لعمر وموقف الإسلام من الشعر قضية باتت واضحة الفكر والمنهج، في حين عاد الشعر إلى حضوره في العصور التالية.

ومن الاستدلالات على ما قام به الشعر من دور في حفظ مفردات العربية وغريب معناها ما نجده من مؤلفات في أبيات المعاني وهي أبيات تحتاج ان يسأل عنها ولا تفهم من الوهلة الأولى ويكون فيها إلغاز إما من حيث المعنى أو من حيث اللفظ والإعراب أو لارتباطها بقصة أو موقف أو لدقة الاستعارة فيها. وقد كثرت المصنفات فيها وأذكر منها "معاني الشعر للأشنانداني" (٢٠) ومن أمثلتها:

قال أبو بكر محمد بن دريد الأزدي:

أنشدني أبو عثمان الأشنانداني سعيد بن هارون قال(٢١):

وشعثاءُ غيراً الضروع مُنيقة

بها تُوصفُ الحسناءُ أو هي أجملُ

دعوتُ بها أبناء ليل كأنهم

وقد أبصروها مغطشون قد انهلوا

يصف ناراً، وجعلها (شعثاء) لتفرق

أعاليتها بالدخان، كأنها شعثاء الرأس،

(وغيراء) يعني غيرة الدخان. وقوله

(بها توصف الحسناء) فإن العرب

تصف الجارية فتقول: كأنها شعلة نار،

٩. وعَرُوضُ شِعْرِ، والدَّرَاعُ، وَقَلْبُ
والمَلْحُ، ثُمَّ الفَأْسُ، والوَرِكَانِ
١٠. والقَوْسُ، ثُمَّ المَنْجَنِيْقُ، وَأَرْنَبُ
والخَمْرُ، ثُمَّ البَيْتَرُ والفَخْدَانِ
١١. وكذالكِ فِي ذَهَبٍ وفَهْرٍ (٢٤) حُكْمُهُمْ
أَبْدًا، وَفِي ضَرْبِ بَكلِّ مَكَانٍ
١٢. وَالعَيْنُ لِلبَيْبُوعِ والدَّرْعُ الَّتِي
هِيَ مِنْ حديدٍ قَطُّ والقَدَمَانِ
١٣. وكذالكِ فِي كَبِدٍ وَفِي كَرَشٍ وَفِي
سَقَرٍ وَمِنْهَا الحَرْبُ وَالنَعْلَانِ
١٤. وكذالكِ فِي فَرَسٍ فَكَأْسٍ ثُمَّ فِي أَفْعَى
ومِنْهَا الشَّمْسُ والعَقْبَانِ
١٥. والعَنْبُوتُ تَحَوُّكُ والمُوسَى مَعَا
ثُمَّ الِيميْنِ، وإصْبَعُ الإِنْسَانِ
١٦. وَالرَّجُلُ مِنْهَا، والسَّرَاوِيلُ الَّتِي
فِي الرَّجْلِ كَانَتْ زِينَةَ العُربَانِ
١٧. وكذا الشَّمَالُ مِنَ الإِنَاثِ وَمِثْلُهَا
ضَبْعٌ وَمِنْهَا الكَفُّ والسَّاقَانِ
١٨. أَمَا الَّذِي قَدْ كُنْتُ فَهِيَ مُخْبِرًا
هُوَ كَان سَبْعَةَ عَشَرَ لِلتَّبِيَانِ
١٩. السَّلْمُ (٢٥)، ثُمَّ المِسْكُ، ثُمَّ القَدْرُ فِي
لُغَةٍ، وَمِثْلُ الحَالِ كُلِّ أَوَانٍ
٢٠. وَاللَّبِثُ مِنْهَا وَالطَّرِيقُ وَكَالسَّرَى
وَيُقَالُ فِي عُنُقِ كَذَا وَلِسَانٍ
٢١. وكذالكِ أَسْمَاءُ السَّبِيلِ وَكَالضَّحَى
وكذا السَّلَاحُ لِقَاتِلِ طَعَانٍ
٢٢. وَالْحُكْمُ هَذَا فِي العَقَا أَبْدًا وَفِي
رِحْمٍ وَفِي السَّكِينِ وَالسُّلْطَانِ
٢٣. وَقصِيدَتِي تَبْقَى وَإِنِّي أَكْتَسِي
ثُوبَ الفَنَاءِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَإِن (٢٣)
تعد هذه الموشحة درساً نحوياً قدمه
صاحبها شعراً، حاول في مقدمتها أن
يضيف عنصر الخيال مستخدماً التشبيه،
في قوله "بمسائل فاحت كروض جنان"
وكذلك في خاتمتها في قوله: "أكتسي ثوب

القرآن - مثلاً - وفي الفرائض والحديث
والقراءات والمنطق والتاريخ واللغة، من
نحو وبلاغة وعروض.

وكان حظ اللغة النصيب الأوفر فني
النحو - مثلاً - نجد لابن الحاجب (٢٢)
منظومة شعرية يجمع فيها المؤنثات
السماعية في قسمين الأول يذكر فيه ستين
كلمة مؤنثة سماعية دون علامات التأنيث،
والثاني يذكر سبع عشرة كلمة يجوز فيها
التذكير والتأنيث. وإن أهمل ابن الحاجب
العديد من الكلمات المؤنثة سماعياً إلا أن
منظومته تعد إسهاماً حقيقياً منه في خدمة
اللغة العربية وإضاعة حقيقة وبرهاناً جلياً
على دور الشعر في حفظ اللغة العربية،
ومن الجدير بالذكر أن المنظومة جاءت
في ثلاثة وعشرين بيتاً من البحر الكامل،
الآيات الثلاثة الأولى مقدمة، تحكي قصة
سائل له عن هذه الأسماء المؤنثة، يقول
فيها:

١. نَفْسِي الفداء لسائل واقاني

بمسائل فاحت كروض حنان

٢. أسماء تأنيث بغير علامة

هي يا فتى في عرهم ضربان

٣. قد كان منها يؤنث ثم ما

هو فيه خير باختلاف معان

٤. أما التي لا بد من تأنيثها

ستون منها: العين والأذنان

٥. والنفس، ثم الدار، ثم الدلو من

أعدادها، والسن، والكتفان

٦. وجهنم، ثم السعير، وعقرب

والأرض، ثم الأست، والعضدان

٧. ثم الجحيم ونارها، ثم العضا

والريح منها، واللظى ويدان

٨. والغول، والفردوس، والفلك التي

في البحر تجري وهي في القرآن

وكأنها بيضة في روضة. يقول: بها توصف
الحسناء أو هي أجمل حسناً منها.
و(المنيفة) المشرفة. و(المعطش) الرجل
إذا عطشت إبله.

وقوله (دعوت بها أبناء ليل) يعني
أضيافاً دعاهم بهذه النار، وليس هناك
دعاء وإنما دعاهم بضوئها، فلما رأوها
كانوا من السرور بها كأنهم معطشون قد
أوردوا إيلهم. و(الناهل) أيضاً الذي سقى
إبله أول سقيه وهو من الأضداد زعموا".

إن القراءة الظاهرية لهذين البيتين
توحي بشيء من عدم الانسجام والتوافق
في المعنى، فكيف توصف الحسناء بالشمع
الغبراء؟ إلا أن في البيت الثاني قرينة
لفظية (دعوت بها أبناء ليل) تؤكد معنى
آخر توصل إليه الأشنانداني، فالشمع ها
هنا هي النار. فالصعوبة هنا تكمن في بعد
المأخذ وعمق المعنى في البيتين.

أخبرنا ابن دريد، قال: أنشدني أبو

عثمان (٢٢):

يُفْدِي بِأَمِيهِ سَرَاخَ وَيَنْتَحِي

على مُزْدَهَى يَهْفُو وَلَيْسَ بِطَائِرٍ

إذا ما رأى مُلْساً ضَوَاحِي جِلْدِهِ

يقول جزاء من حليب وحازر

يصف رجلاً أنهزم فدى فرسه

بأميهِ، كأنه يقول فدتك أُمِّي وخالتي
فجعلهما أُمِّيْن. ويمكن أن تكون أيضاً
جدته".

ثانياً: حفظ اللغة للشاهد

النحوي.

أدرك العلماء دور الشعر في حفظ
العلوم، فلجأ إليه مصنفوها يضبطون
به القواعد، ويقيدون به الأحكام، فتجد
العديد من المنظومات الشعرية في تفسير

الاستعمال ،وننبه على مصدره فمن واجب اللغة أن تلاحق الحياة بالتعبير وليس من حقنا أن نعوق تلك الملاحقة فنعين خصوم اللغة العربية ومحاربيها - وهم كثيرون - عليها (٢٨) .

وقد اتهم البعض الشعر بأنه يتجاوز قواعد العربية وأنظمتها في بعض الأحيان ، فيما عرف بالضرورة الشعرية ، ومثال ذلك تأخير المضاف إليه عن موضعه الذي ينبغي أن يكون عليه من مجاورة المضاف بلا فصل(٢٩) ، كقول ذي الرمة(٣٠):

كأن أصوات من إيغالهن بنا

وأخر الميسر أصوات الفرائج
ولعل ما كان من ضرورة شعرية تفسيره عائد إلى أن طبيعة الشعر قائمة على الإنشاد ، فيجد الشاعر في ذلك سبيلا لتحقيق وزن القصيد ، ومن ثم إن كان هناك من تصحيف أو تجاوز لقاعدة نحوية فهو قليل إذا ما قيس بالكم الشعري الذي وصلنا ، وطبيعي في بيئة اعتمدت الرواية الشفوية في نقل تراثها وتسجيله .

ويرى البعض أن الضرورة الشعرية هي مما لأراد أن يفرضه الشاعر الفذ مستظها بشاعريته مستعصما بها ، وليس ما يقوله النحويون واللغويون شيئا إزاء ما يرسله هذا الصانع الأستاذ في فنه . فالضرورات عرضت للفحول من الشعراء ، فأما من النظامين فهم يكدون ليبتعدها عنها ليستحقوا إرضاء النحويين (٣١) .

ثالثا : حفظ الشعر للهجات العربية .

استطاع الشعر أن يؤرخ للهجات العرب ويكشف عما درج على ألسنتهم من استخدامات لبعض الحروف جرت على

ومن أمثلة الشواهد النحوية، ما ذكر الأشموني أنّ خبر (كأن) المخففة إذ جاء جملة فعلية، فُصل بينها وبين خبرها بـ (قد) أو (لم)، ومنه قول الشاعر(٢٦):

لا يهؤنك اصطلاء لظى الحر

ب فمخدورها كأن قد أما
وكذلك ما يذكره من أن (زال) يشترط في عملها أن تسبق بحرف نفي أو شبه نفي (كالنهي أو الدعاء) بقول الشاعر(٢٧):

ألا يا أسلمي يا دار مَي على البلى

ولا زال مُنهلاً بجرعائك القطر
إن هذه الأمثال ما قدمناها إلا على سبيل الذكر والاستدلال على دور الشعر في حفظ اللغة للشاهد النحوي.

لكن ما يتوجب علينا الوقوف عنده قبل أن نترك الشاهد النحوي القول أن تحديد الاحتجاج زمانيا ومكانيا يجعلنا نغلق الأبواب أمام ديمومة اللغة وحيوتها ، وكذلك تنفي عنها الابتكار والتجديد ، فاللغة ماثلة بحروفها ونحوها وصرفها في كل العصور قديمها وحديثها ، والإبداع غير مقصوهار على بيئة زمانية أو مكانية مادام ضمن الأطر المرسومة .

إن من حق اللغة علينا أن نعدّ السماع من الشعراء المولدين والمحدثين امتدادا للسمع من القدماء في حدود الأصول والضوابط المقررة ، فإذا جاءت عنهم صيغة أو عبارة لها وجه في تلك الأصول والضوابط ولا يعيبها إلا أنها لم تسمع عن القدماء فلنقبلها ولنضنها إلى ثروتنا اللغوية منبهين على مصدرها وكذلك إذا جاء عنهم استعمال للألفاظ أو العبارات في معانٍ جديدة لكنها متطورة عن المعاني القديمة فعلينا أن نقبل ذلك

الفناء" ولعل ما بلغت النظر أن عنصر الخيال - والذي يعد من أهم عناصر الشعر، وأبرز سمات اللغة الشعرية - ولم يقع من صاحب الموشحة إلا في بيتين منها، في البيت الأول وفي البيت الثالث والعشرين والسبب يكمن في أن ما عدا هذين البيتين تتمثل القاعدة النحوية في الأسماء المؤنثة سماعياً وجوباً وجوازاً، وهذا يعني أن لغة النحو تختلف عن لغة الشعر فالنحو موجه للعقل والمنطق أما الشعر فهو موجه إلى العاطفة والشعور الإنساني والعقل معا، إلا أنها - رغم ذلك - لها أهميتها؛ فهي تجمع قائمة كبيرة من الأسماء المؤنثة سماعياً وجوباً وجوازاً يحتاجها المرء في التعبير والكتابة، وكذلك فهي دليل على قدرة الشعر على حفظ قواعد اللغة العربية واستيعابها.

وقد تشدد علماء اللغة والنحو في الاحتجاج بالشعر ووضعوا قيوداً زمانياً ومكانياً للشواهد الشعرية التي يحتج بها، فقسّموا الشعراء زمنياً إلى طبقات أربع(٢٤)، طبقة الشعراء الجاهليين، وطبقة الشعراء المخضرمين، وطبقة الشعراء الإسلاميين (عصر بني أمية) وآخرهم إبراهيم بن هرمة، وطبقة الشعراء المولدين والمحدثين، وهم يبتدئون في العصر العباسي كيشار بن برد وأبي نواس. وقد أجمع أئمة اللغة والنحو على أنه لا يحتج بشعر المولدين والمحدثين، فرزمن الاحتجاج ينتهي بمئة وخمسين بعد الإسلام. أما مكانياً فقد استقى علماء اللغة والنحو مادتهم من أعراب البادية أو ممن وفد من الأعراب عليهم وحدودها قبائل معينة: تميم، وقيس، وأسد، وهذيل، وبعض كنانة والطائيين(٢٥).

بقدره حروفها على التعبير والعزف على أوتار الشعور الإنساني ، إذ إنها تحمل كل المعاني من أمل أو ألم ، من أمن أو هلع ، من حركة أو سكون ، من حياة أو فناء ، ويكون ذلك بترتيب حروفها وما تحدثه من إيقاعات تعبر عن ذلك كله .

والشعر يكون فيه التقديم والتأخير ، والوجوب والجواز ، والقصر والمد ، والوضوح والإيغال، فهو يحيي اللغة لا يتجاوزها ، وهو يقرأ لا ينفبها واستمراريته إلى يومنا هذا وفق ضوابط اعتمدها النقاد دليل على دوره في حفظ اللغة ، فالإنسان إن ضاقت نفسه أو جاشت عواطفه ، أ و تأججت مشاعره لجأ إلى الشعر نظماً أو استماعاً أو قراءة ، ففيه يجد صورة تحكي واقعه أو ترسم مستقبله ، أو تسج خياله .

أن الأوان أن تفتح للشعر الأبواب ويدخل بجلته الجديدة كتب النحو وكتب البلاغة والصرف، وأن يحظى بمساحة أكبر في مناهجنا المدرسية ليكون الطالب على ألفة به لا تتقطع .

هذه الأبيات لبعض أهل اليمن (٢٥) :
يارب إن كنت قبلت حجتج
فلا يزال شاحج يأتيكج بچ
أقمر نهات ينزى وفرتج
أراد حجتج ، ووفرتج ، وبج .

وأشار كذلك إلى طريقة نطق أهل البدو فيما رواه عن رجل زعموا أنه من كلب (٢٦) :

أرسل فيها بازلاً يقرمه
وهو بها ينحو طريقاً يعلمه
باسم الذي في كل سورة سُمهُ
أراد اسمه .

من هنا يتضح لنا أن الشعر حفظ تلك اللهجات العربية واستحضرها ولم ينكرها .

الخاتمة :

كان الشعر مصدراً من مصادر اللغة ووعاء من أوعيتها حفظ مفرداتها وتراكيبها ونحوها وبلاغتها ، وما زال قادراً على حفظها إلى يومنا هذا ، ولا بد أن يمنح الثقة وأن يتجاوز حدود الزمان والمكان ، فهو يجعلها لغة نابضة بنبض عصرها ، لا لغة متآكلة أو قاصرة ، بل هي لغة مشعة

غير صورتها ، مثل : عنمنة تميم ، وكسكسة ربيعة ، وكشكشة هوازن ، وتضعج قيس وغيرها ، وقد كانت بعض القبائل تبدل حرفاً مكان حرف أو تدغم حرفاً بأخر أو تحذف حرفاً .

ومن أمثلة ذلك : إدغام نون "من" الجارة في لام التعريف كما في قول كُتِّير (٢٢) :

إذاوصلتنا خلة كي نزيها

أبيننا وقلنا الحاجبية أولُ
لها مهلٌ لا يُستطاعُ دراكهُ

وسابقةً ملحِبٌ لا تتحولُ

كما كانت هذيل تحذف النون من الأسماء الموصولة وتحذف الياء من الذي ، كقول الهذلي (٢٣) :

فكنت وأمر الي قد كيدا

كاللذ تربي زبية فاصطيدا

وقد نسب إلى بني حارث بن كعب وبعض ربيعة حذف النون في الموصول ، ومنه قول الأخطل (٢٤) :

هم اللتا لو ولدت تميم

لقليل فخر لهم صميمُ

ويشير أبو زيد بن سعيد الأنصاري إلى رواية المفضل الذي قال : أنشدني أبو الغول

الهوامش

- (١) د. سمير روجي الفيصل، "الشعر والهوية في زمن العولمة" http://www.arrafid.ae/arrafid/p2010-7___5.html.
- (٢) "الشعر وأثره في حفظ الظواهر الصوتية للغة العربية" <http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=193632>.
- (٣) الفارابي، "آراء أهل المدينة الفاضلة"، تحقيق ألبير نصري نادر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٩، ص٨٨.
- (٤) د. أنفت كمال الروني، "نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد"، الطبعة الأولى، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣، ص١٢٦.
- (٥) د. عبد الحميد الشلقاني، "مصادر اللغة"، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، الطبعة الثانية، ١٩٨٢، ص١٨٨.
- (٦) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، "المزهر في علوم اللغة"، مطبعة الحلبي، ١٩٥٨، الجزء الثاني، ص٤٧٣.
- (٧) عباس محمود العقاد، "اللغة الشاعرة"، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥، ص٨.
- (٨) المصدر نفسه.
- (٩) المصدر نفسه.
- (١٠) سورة الحجر، آية ٩.
- (١١) عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، ص١٠٢.
- (١٢) أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، الإبل ضمن كتاب الكنز اللغوي، طبعة بيروت، ص١٠٢.
- (١٣) المصدر نفسه، ص٧٤.
- (١٤) الأصمعي، كتاب النبات والشجر، طبعة بيروت، ١٨٩٨، ص٣٢.
- (١٥) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري، المطر، ص١٤/٧.
- (١٦) كتاب اللبأ واللبن ضمن كتاب البلغة في شذور اللغة، طبعة بيروت، ١٩٠٨، ص١٤٣.
- (١٧) محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، طبعة الحلبي، ١٩٣٧، ص٨٠٨ وما بعدها.
- (١٨) النحل، آية ٤٧.
- (١٩) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل"، طبعة مصطفى الباي الحلبي، ١٩٤٨، الجزء الثاني، ص٢٠٥.
- وانظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الجزء العاشر، ص١١٠.
- (٢٠) ذكره ابن النديم (١٩٨٥: ٢٧١) في كتابه "الفهرست" في مقالة اللغويين والنحويين، فقال: "هو سعيد بن هارون ويكنى أبا عثمان، روى عنه أبو بكر بن دريد، ولقبه في البصرة، وله من الكتب: معاني الشعر، وكتاب الأبيات الغربية".
- (٢١) الأشتانانداني، أبو عثمان سعيد بن هارون. (١٩٨٨). معاني الشعر. بيروت: دار الكتب العلمية، ص١١.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص٨٩.
- (٢٠) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل"، طبعة مصطفى الباي الحلبي، ١٩٤٨، الجزء الثاني، ص٢٠٥.
- وانظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الجزء العاشر، ص١١٠.
- (٢١) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل"، طبعة مصطفى الباي الحلبي، ١٩٤٨، الجزء الثاني، ص٢٠٥.

- وانظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الجزء العاشر، ص ١١٠.
- (٢٢) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل"، طبعة مصطفى البايي الحلبي، ١٩٤٨، الجزء الثاني، ص ٢٠٥.
- وانظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الجزء العاشر، ص ١١٠.
- (٢٣) ابن الحاجب: هو أبو عمرو بن عمر بن أبي بكر بن يونس، جمال الدين الدوني، كان أبوه كرديا حاجبا للأمير موسك الصلاحي، من أعلام الفقه والأصول والعربية والقراءات، توفي ٦٤٦ هـ.
- (٢٤) الفهر: حجر صغير يملأ الكف.
- (٢٥) السُّلْمُ، السُّلْمُ.
- (٢٦) ابن الحاجب، "القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة السماعية"، تحقيق د. طارق نجم عبدالله، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردن، ص ٦٩ وما بعدها.
- (٢٤) عبد القاهر البغدادي، "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب"، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخفاجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، الجزء الأول، ص ٥.
- (٢٥) جلال الدين السيوطي، "الاقتراح في علم أصول النحو"، تقديم أحمد سليم الحمصي ود. محمد أحمد قاسم، جورس برس، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ١٩.
- (٢٦) محمد بن علي الصبَّان، "حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك"، ضبطه وخرج شواهد إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، الجزء الأول، ص ٤٣٣.
- (٢٧) المصدر نفسه، ٤٢٢/٢.
- (٢٨) د. محمد حسن جبل "الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته" دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٣٦.
- (٢٩) د. إبراهيم السمراي "العربية تاريخ وتطور" ط ١، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٣، ص ٢٧١.
- (٣٠) ابن رشيق القيرواني "العمدة في صناعة الشعر" القاهرة، ١٩٠٧.
- ج ٢، ص ٢٥٣.
- (٣١) أبو سعيد السيرافي "ضرورة الشعر" تحقيق د. رمضان عبد التواب، ط ١، دار النهضة العربية، بيروت، ص ١٧٨-١٧٩.
- (٣٢) الأصمعيات، ص ٢٨٧.
- (٣٣) المصدر نفسه.
- (٣٤) ابن الشجري "أمالي ابن الشجري" طبعة حيدر آباد، ١٣٤٩هـ، ج ٢، ص ٣٠٨.
- (٣٥) أبو زيد سعيد الأنصاري "النوادر"، طبعة اليسوعيين، ١٩٣٦، ص ١٦٢.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص ١٦٦.

المصادر والمراجع :

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- الأنصاري ، أبو زيد سعيد بن أوس : " النوادر " ، طبعة اليسوعيين ، ١٩٣٦
- كتاب اللبأ واللبن ضمن كتاب البلغة في شذور اللغة ، طبعة بيروت ، ١٩٠٨
- ٣- الأشناداني ، أبو عثمان سعيد بن هارون . (١٩٨٨) . معاني الشعر . بيروت : دار الكتب العلمية ، ص ١١ .

٤- الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب : الإبل ضمن كتاب الكنز اللغوي، طبعة بيروت.

- كتاب النيات والشجر، طبعة بيروت، ١٨٩٨.

٥- البغدادي ، عبد القاهر : خزانة الأدب ولب لسان العرب " ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخفاجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.

٦- جبل ، محمد حسن حسن " الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته " دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٦.

٧- ابن الحاجب ، القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة السماعية" ، تحقيق د. طارق نجم عبدالله، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردن.

٨- الروني ، ألفت كمال ، " نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد " ، الطبعة الأولى، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٢.

١٠- الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ، " الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن في وجود التأويل " ، طبعة مصطفى البايي الحلبي، ١٩٤٨.

١١- السمرائي ، إبراهيم السمرائي " العربية تاريخ وتطور " ط ١ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٩٢ .

١٢- السيرافي ، أبو سعيد : " ضرورة الشعر " تحقيق د. رمضان عبد التواب ، ط ١ ، دار النهضة العربية ، بيروت.

١٣- السيوطي ، جلال الدين : الاقتراح في علم أصول النحو" ، تقديم أحمد سليم الحمصي ود. محمد أحمد قاسم، جورس برس، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

- المزهري في علوم اللغة، مطبعة الحلبي، ١٩٥٨.

١٤- ابن الشجري : أمالي ابن الشجري " طبعة حيدر آباد ، ١٣٤٩هـ

١٥- الشلقاني ، عبد الحميد ، " مصادر اللغة "، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.

١٦- الصبان ، محمد بن علي ، " حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك " ، ضبطه وخرج شواهد إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

١٧- العقاد ، عباس محمود ، " اللغة الشاعرة " ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥.

١٨- الفارابي ، الفارابي، " آراء أهل المدينة الفاضلة " ، تحقيق ألبير نصري نادر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٩.

١٩- الفيصل ، سمير روجي الفيصل، " الشعر والهوية في زمن العولمة

http://www.arrafid.ae/arrafid/p2010-7__5.html

٢٠- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، " الجامع لأحكام القرآن " ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

٢١- القيرواني ، ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر ، القاهرة، ١٩٠٧ .

٢٢- المبرد ، محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة والأدب، طبعة الحلبي، ١٩٢٧.

٢٣- ابن النديم ، ، محمد إسحاق: الفهرست. تحقيق الدكتور مصطفى الشويبي، تونس: الدار التونسية، والجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥ .

٢٤- ولد خيرى، محفوظ : " الشعر العربي وأثره في حفظ الظواهر الصوتية للغة العربية.

<http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=192622>